الفصل الرابع

بستالوتزى

الفصل الرابع

بستالوتزى

* حياته .
* مدرسته فى نيوهيف .
* بعض كتاباته .
* فى ستانز .
* فى برجدورف .
* فى فردون .
* آراؤه فى التربية

حياته

فى مدينة زيورخ عام ١٧٤٦ كان بين اسم مواليد تلك السنة اسم شاء له الله أن يلمع وتردده الأفواه ، هو جون هنرى بستالوتزى John Henry Pestalozzi ولم يقدر له أن يرى والده أكثر من خمس سنوات ، ولكن الله عوضه بأم تقية دينة عرف الورع السبيل إلى قلبها وخلا قاموس حياتها من كلمة «الأثرة» فراحت بهذين السلاحين تربى جون هنرى بستالوتزى وأخاه وأخته . وعندما طرق أبواب المدارس لأول مرة استطاع أن يجذب القلوب حوله بحسن معاملته وبعده عن الأنانية . حتى إذا جاء وقت الأجازة السنوية هرع فى لهفة إلى جده ، وكان من رجال الدين اتخذ له مقاما فى قرية ليست بعيدة عن زيورخ . وفى القرية كانت عينا الصبى لاتفتآن تريان وأذناه تسمعان ، فأحس بحنو نحو الفقراء ، ثم وضع فى ذهنه الخطوط العريضة لما يستطيع القادر أن يفعله من أجل هؤلاء التعساء .

وعندما تقدم الفتى فى دراسته عول على أن يسلك طريق جده ، والتحق من أجل ذلك بالجامعة ، وهناك تشبع بالكثير من آراء أحد أساتذته وأسهم فى التحرير بصحيفة كانت تصدر بانتظام . ومن صيحاته العديدة رجاؤه فى أن يعمل الأغنياء من أجل الفقراء ، وأن التعليم الصحيح كفيل بأن يهيىء للفقراء حياة أسعد . ولكنه أوقف اصدار الصحيفة نتيجة لمؤامرات حيكت ضدها ، غير أن الشاب المتحمس لم تهن قواه . فترك الدراسة الدينية وأنكب على دراسة القانون كى يصبح مدافعا عن الفقراء. ومرة أخرى ترك القانون ودراسته جانبا وبدأ يتعلم الفلاحة والزراعة ، وهنا تزوج بستالوتزى بعد أن اشترى قطعة كبيرة من الأرض قريبة من زيورخ لينفذ فيها طرائقه وأساليبه الجديدة فى الزراعة ، وكانت أرضا بورا عول على استصلاحها وأسهم بعض المصارف معه ، ولكن فجأة سحبت المصارف ما دفعته من مال ، وكادت تحل كارثة ببستالوتزى ، ولكن بعض أصدقاء زوجته أنقذوه فى اللحظة الحاسمة . وقال لنفسه :

«مادهانى ، أين آرائى ، لقد كنت أعمل لنفسى ولزوجتى ولم أكن أعمل لصالح الغير... ».

وعندما ولد له طفل أمسى احتكاكه بالتربية جليا واضحا .

مدرسته فى نيوهيف

نظر ذات مرة إلى الأطفال الفقراء وتساءل عن كيفية إسعادهم وخرج من تفكيره بالفكرة التالية «ليس الأمر أن يعرفوا ما يجهلون ولكن المهم أن يسلكوا مالم يسلكوه» وبنى على هذه الفكرة رأيا قال فيه «ولن يتأتى لهم ذلك إلا إذا أحسوا بأنهم محبوبون وأن هنالك من يعتنى بهم ، وفوق ذلك يجب أن يتعلموا كيف يحترمون من هم أكبر منهم سنا » . ونادى بأن هؤلاء الأطفال يجب أن يتعلموا كيف يساعدون أنفسهم وغيرهم .

وكان بستالوتزى عمليا واقعيا ، فسرعان ما ضم منزله عددا من هؤلاء الأطفال البؤساء ، شملهم بحبه وعطفه وشرع يعلمهم الفلاحة والغزل والنسيج وكان يأمل أن يكفى إنتاجهم أود حياتهم . وبدأ العمل فعلا فى ظروف قاسية جدا مما كبد زوجته الكثير من المشاق .

وكان عدد الأطفال عشرين ، عملْ معهم فى الحديقة والحقل صيفاوداخل الدار شتاء ، وكان يجلس إليهم فيحادثهم فى شتى الموضوعات المستمدة من حياتهم اليومية ثم حفظهم الانجيل عن طريق تكرار أجزاء منه . وفكرته هنا تقوم على مبدأ التحدث والمناقشة يجب أن يسبقا القراءة والكتابة» .

عمل هذا النظام عمل السحر فى الأطفال ، فلم تمض عدة أشهر إلا وتفتحت هذه الزهور الذابلة ، فسرت الصحة والقوة فى أبدانهم وبان الذكاء على وجوههم ، واكتسوا

بالسعادة والطمأنينة بعد الشقاء والبؤس . وبعد هذا النجاح الساحق أعلن (بناء على نصيحة أحد أصدقائه ممن يحررون الصحف) حاجته إلى أعداد من الأطفال ، وأردف «عندما تنجح فى جعل قلب الطفل يتأثر ، فتأكد أن النتائج ستكون حتما خيرة لصالح نموه ولبنائه الخلقى» . ويؤكد أن الطفل إذا ما أحس بالعطف والرعاية فإنه سيبتعد عن كل شائن .

بدأ بستالوتزى يعمل من جديد مع عدد غفير من الأطفال معتمدا على بعض المعونة المادية التى كان يتلقاها وعلى حبه للأطفال . ولكن أسفرت مجهوداته الجديدة عن افلاس ، فإن آباء الأطفال - وكانوا فى معظمهم من الشحاذين - هاجموا بستالوتزى فى غير هوادة ظنا منهم أنه يستغل الأطفال لمغنم مادى يئول إليه ، بل وعملوا على تشجيع الأطفال على الفرار بملابسهم الجديدة ، وثمة سبب آخر يرجع إلى جهل بستالوتزى بشئون الإدارة والتنظيم ، ويعترف فوق كل هذا بأن نتاج أعمال الأطفال من المنسوج كان يتكلف أكثر من الثمن الذى يباع به . وقد أدى الأمر به إلى أن يطلب المعونة المادية من زوجته حتى نضب معين أملاكها .

بعض كتاباته

وأعقب هذا الفشل ثمانى عشرة سنة عجافا قاسى فيها بستالوتزى ، ألوان الشظف والحرمان . وفى العادة تمضى سنو الحرمان بطيئة متثاقلة ، ولكن الوقت يمر على بستالوتزى وما زالت بارقة أمل فى قلبه . ولم يخب ظنه ، فقد طرقت باب داره ذات يوم خادمة اسمها «اليزابث» مات عنها سيدها وسمعت بقصة التعس الذى يعيش فى نيوهيف . فقررت أن تضحى نفسها قربانا له ، ولكنه رفض ، أما هى فألحت وأصرت فقال لها «إذن فابقى وستجدين أن الله يرعى من بالبيت» .

هذه الخادمة الأمية كانت تتبع خطى سيد الدار ، بل ويرى بستالوتزى أنها هى التى ألهمته فكرة كتابه الذى سماه «ليونارد وجرترود» . وعندما تاق للكتابة فى الصحف ظهرت له عدة مقالات متتابعة تحمل اسم «ساعة الناسك الليلية . The Evening Hour of a Hermit » .

وبعد ذلك ظهرت مجموعة فى كتاب لكنها لم تجد صدى فى نفوس الكثيرين ، فألح عليه من حوله أن يكتب شيئا ذا شكل شعبى ، وهنا تبلورت الفكرة التى ألهمته إياها الخادمة «اليزابث» فشرع يكتب حتى ظهر «ليونارد وجرترود» Leonard and Gertrude تدور قصته حول حياة سكان الريف وأسباب انحطاط مستوى معيشتهم . وسرعان ما تخاطف الناس نسخ الكتاب .

يختلف الناس فى نظرتهم للكتاب الواحد . فبينما وجد الكثيرون فى الكتاب قصة ممتعة ، إذا بجمعية «برن الزراعية» ترسل كتاب شكر لبستالوتزى ومعه ميدالية ذهبية لأنه ضمن كتابه وسائل عملية من شأنها أن تصلح حال الفلاحين .

وشجعه نجاحه على طبع كتابه الذى سماه «كرستوفر وأليزا» Christopher and Eliza وضمنه بعض المبادىء التربوية والتعليمية ، ولكن العامة كانوا يريدون التسلية لا التعليم ، ولذا فلم يصادف الكتاب هوى فى نفوسهم ، ولهذا فشل . ثم ألحق بهذا الفشل فشل آخر عندما أصدر صحيفة أسبوعية أطلق عليها اسم «الجريدة السويسرية Swiss Journal ويعلل سبب الفشل هنا بأنه ملأها بالحكمة!! .

أحجم بستالوتزى بعد ذلك عن الكتابة فترة ، تعرف خلالها على كثير من فلاسفة الألمان مثل جوتة وفيخته ، وقد اضطره الأخير إلى محاولة فلسفة آرائه ، فظل يعمل دون هوادة مدة ثلاث سنوات حتى أصدر سنة ١٧٩٧ «بحث فى أثر الطبيعة فى نمو الجنس البشرى» [1] وكان بحثا عمليا فلسفيا لدرجة أن بستالوتزى نفسه قال «لم

(1) Inquiry into the Course of Nature in the Development of the Human Race .

يفهمنى أحد» ولكنه مع ذلك لم ييأس فأنتج فى نفس العام كتابا أسماه أخيرا «أقاصيص» [1] اشتمل على مجموعة كبيرة من النوادر التى يقارن فيها بين الحيوان والإنسان : فهذه نادرة عن فرسين ربيت أحداهما عند فلاح فقير والأخرى عن ثرى اعتنى بها ، ثم يخاطب الوالدين قائلا إن أبناءكم كالفرسين ، فالعناية فى التربية لا شك ستظهر أثارها فى الطفل .

فى ستانز

كان بستالوتزى من ذلك النفر الذين يفكرون ويعملون ، وهؤلاء نفر قليل ، وهو لم يقتصر على ما يجب أن يفعل فحسب بل بذل مجهودات رائعة للعمل فعلا . وقد كانت محاولته الأولى فى نيوهيف من وحيه ومن عمله وكذلك محاولته الثانية فى ستانز Stanz ، ولكنه ضم إليه آخرين فيما بعد حتى لايوقف العمل .

إنه كان يرى فى نفسه الوسيلة لإنقاذ الناس من الفقر والبؤس الذى يعيشون فيه ، ورأى أن حالتهم ستظل على ما هى عليه إذا لم يتعلموا تعليما صحيحا .

وقد وجد فى الأطفال الفقراء البذور التى إذا اعتنى بها أنتجت ثمارا شهية ونبتا صالحا ، ولكن الطرائق التى كانت تتبع فى تربيتهم ثبت أنها أبعد ما تكون عن الصواب ، فقد انصبت على تلقين الطفل أفكار وآراء ومعلومات الغير ، أى أنها عملت على محو شخصيته وسيطرة شخصية المربى . والخطأ الرئيسى هو أن المعلم كان يعمل من الخارج إلى الداخل ، أما بستالوتزى فأصر على أن تبدأ التربية من الطفل ، من الداخل إلى الخارج . ولذا فقد بحث عن وسائل لتنمية قوى الطفل الداخلية الفطرية ، وفى هذا يقول «إن الطبيعة تنمى كل قوى الإنسانية بمرانها وتدريبها» (مران وتدريب هذه القوى) .

---

(1) Fables

بذلك اتخذ بستالوتزى حاجات وميول الطفل نقطا للبداية ، وربط بين عمل الجسم وعمل العقل ، وبين التحصيل العلمى والعملى . وكان يعيب على المدارس اسراعها فى تعليم الأطفال الحقائق العلمية ، وهو يرى أنها بذلك تعارض عمل الطبيعة التى لاتعرف التسرع .

وعندما اجتاحت الجيوش الفرنسية أرض سويسرا سنة ١٨٩٨ بدأت الأمور تتغير وأقامت قوات الاحتلال حكومة من لدنها وعملت هذه على البحث عن حلفاء بين السويسريين ، وراحت تسترجع أسماء الكتاب وقادة الفكر ، وطبيعى أن تقف الحكومة طويلا أمام ذلك الشخص الذى كتب «ليونارد وجرترود» . ولم تكن بحاجة كبيرة إلى اقناعه ، فبدأ يكتب فى الصحف مثنيا على الحركة الفرنسية المباركة مما أثلج صدر حكومة الاحتلال ، فعرض عليه أن يتخير الثمن فلم يطلب أكثر من أن يعين «مدرسا» ، فرأت الحكومة فى هذا الطلب شيئا يسيرا جدا ، وعرض عليه أن يتخذ لنفسه ولأطفاله مقاما فى دير بمدينة ستانز ، وكان عدد الأطفال أربعين .

لعبت الأفكار والأمانى الجميلة برأسه وتخيل أنه وقد أتيحت له الظروف المادية بمستطيع أن ينجح فيما فشل فيه ، ولكنه عندما قفل باب الحجرة الكبيرة الوحيدة التى ضمته مع الأربعين طفلا تحطم هذا الأمل - ولم يساعده فى عمله سوى خادم عجوز لانفع فيه ، وكان عليه أن يقوم بعمل كل شىء لهؤلاء الأطفال الذى تيتموا من جراء الحرب . وعندما رفع بستالوتزى صوته محتجا بضيق المكان وقلة الماء والمساعدة زيد عدد الأطفال إلى ثمانين !! ولم يكن يأمل فى مساعدة مادية من أهالى المدينة لأنهم اعتبروه متواطئا مع الغاصب وبذلك رفضوا أن يضعوا أيديهم فى يد من حالف الشيطان .

ومع ذلك ففى هذه الظروف التى إذا وصفت بأنها قاسية فيعتبر هذا الوصف أقل بكثير من الحقيقة ، ومع ذلك فقد نجح بستالوتزى ، ففى مدة خمسة أشهر فقط ازدهر

النبت الصغير ولم يتفق الأطفال فى شىء أكثر من اتفاقهم على حب بستالوتزى . نعم انها كانت معجزة ، بل إنها مكافأة المؤمن المخلص ، هدية لصاحب قلب كبير : إنه آمن، فعزم ، فنجح ، لقد وقف أمام الأطفال وقال بصوت متهدج ولكنه مملوء بالثقة «إن الإنسان خير» وفى الحقيقة إنه آمن بأن الخير من عند الله .

لم يمض بستالوتزى بهذا الدير أكثر من هذه الأشهر الخمسة ، فإن الجيش الفرنسى الذى كان يحارب فى النمسا وشمال إيطاليا احتاج للدير ليكون مستشفى للجنود والجرحى ، فانسحب بستالوتزى بأطفاله إلى بعض الحمامات المهجورة فى الجبال القريبة . وتعد هذه الأشهر الخمسة من الأحداث التى لاتنسى فى تاريخ التربية .

ولكن الزمن والأقدار تأبى إلا أن تكون ساخرة ماجنة ، فهذا الذى أنتج أكبر حدث فى تاريخ التربية لم يكن يؤتمن فى التدريس لطفل ، «فهو ضعيف فى الحساب كثير الأخطاء النحوية والإملائية» كما ردد حساده . ولكن أنصاره يقولون «ومع التسليم بكل هذا فإنه قد فهم مالم يفهمه كل المدرسين ، فهم عقل الإنسان وقوانين النمو وعرف كيف يجذب قلوب أطفاله نحوه» .

فى برجدورف

ومع ذلك فقد فشل هذا «الحالم» فى الحصول على وظيفة مدرس ، وبعد لأى استطاع بعض خلصائه أن ينجحوا فى إلحاقه مدرسا بمدرسة فى برجدورف Burgdorf على شرط أن يدرس للسنة الأولى فقط . وكان عدد الأطفال خمسة وعشرين بين بنين وبنات وتتراوح أعمارهم بين الخامسة والثامنة. وبعد ثمانية أشهر أجرى اختبار للأطفال وتمخضت نتيجة الاختبار عن اعتراف رسمى بمزايا طريقته ، وأرسلت له إدارة المدرسة خطابا جاء فيه «إن التقدم المدهش للأطفال ذوى القدرات المختلفة يبين أن كلا منهم صالح لشىء إذا استطاع المدرس أن يحسن استغلال مواهبهم مترسما خطى قوانين علم

النفس . إن الطرائق القديمة التى قامت على التعذيب وألوان العقاب المختلفة مكنت الأطفال من معرفة هجاء الكلمات وإجادة عمليات الحساب ، أما طريقتك فقد زادت على ذلك إجادتهم الرسم والخط بل ورغبتهم فى دراسة التاريخ والتاريخ الطبيعى والجغرافيا مما سييسر على المدرسين الذين سيدرسون لهم فى المستقبل عملهم ...» .

وكان من نتيجة هذا الخطاب أن ألقيت إلى بستالوتزى مقاليد الأمور فى مدرسة ثانية فى برجدورف بلغ عدد تلاميذها وتلميذاتها سبعين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة .. وانكب هذا المؤمن على عمله بإخلاص نادر ، وكان أمله لايقتصر على دائرة صغيرة ، بل فكر فى خير كل أطفال المقاطعة بل كل أطفال سويسرا ، بل فوق هذا صالح كل أطفال أوربا ، وكان الصدق والإيمان المشتعل فى صدره يهتف من أعماقه صائحا«إذا أردنا أن نمد يد العون إلى الفقير والبائس فلا يوجد سوى طريق واحد هو تغيير المدارس إلى أماكن للتربية الحقيقية ، حيث يتاح للقوى الخلقية والعقلية والجسمية التى منحتنا إياها الطبيعة أن تعمل وتظهر ، وبذلك يمكن للإنسان أن يحيا كما يجب أن يحيا الإنسان راضيا عن نفسه ومرضيا لغيره» .

ويرى بستالوتزى أن التربية تبدأ مباشرة بعد ولادة الطفل ، وبعد أن تبدأ حواسه فى العمل ، ويقول «إن الطبيعة مملوءة بالمناظر الجميلة ومع ذلك فإننا لم نفعل شيئا ليحس الفقير بهذا الجمال» .

فى عام ١٨٠٠ وفد إلى مدينة برجدورف ثلاثون طفلا تحت رعاية شاب اسمه كروزى Kruesi ووقف بأطفاله وسط المدينة فهرع السكان إليه وتخيرت كل عائلة طفلا تتبناه ، أما هو فقد لجأ إلى بتسالوتزى وتشرب بآرائه ومبادئه ثم تصافحا دلالة التعاون . وكان تحت يد بستالوتزى تصريح باستغلال حديقة وبناء قلعة المدينة ، فشرع بستالوتزى ومعاونه فى العمل بهمة ونشاط فى هذه القلعة التى عرفت فيما بعد باسم معهد برجدورف . وانضم إليهما شابان آخران هما توبلر Tobler وبس Buss ، وقدر لعمل هؤلاء الأربعة أن تتجاوب أصداؤه فى أنحاء العالم .

ومنح بستالوتزى إعانة مالية من الحكومة ، بل أكثر من ذلك افتتح فصلا فى القلعة لتدريب معلمى المدارس الاعدادية ، فكانت دفعة المدرسين تبقى مدة شهر تدرس على بستالوتزى . وحدث أن زار أحد أولياء أمور الأطفال المعهد فقال «إن هذه ليست مدرسة ولكنها عائلة» فعقب بستالوتزى على هذا القول «إن هذا غاية ما نبتغيه» . وفى الحق أن الحياة فى المعهد كانت مشوبة بعنصر الحب «للأب بستالوتزى» . ولعل خير ما يعبر عن نجاحه رأى رئيس مجلس التعليم فى برن الذى قال «إن بستالوتزى قد اكتشف القوانين الحقيقية العالمية للتدريس فى المدارس الاعدادية» .

عندما شكلت لجنة للذهاب لباريس للاتفاق على شكل الحكومة التى ستحكم سويسرا فى ظل الاحتلال الفرنسى ، اختير بستالوتزى عضوا فيها ، وقد عول على أن يكلم نابليون بونابرت فى شئون التربية والتعليم ، ولكن هذا بين أنه لايعرف شيئا عنها وأحال بستالوتزى إلى العالم الرياضى منج Monge ، وكان هذا يعتقد أن بستالوتزى لايعرف شيئا!! فلم تلق كلماته صدى فى نفس منج ، وعندما عاد بستالوتزى إلى قواعده سئل «هل رأيت بونابرت ؟» أجاب «لم أر بونابرت ولم يرنى بونابرت» فوضع نفسه على قدم المساواة مع الرجل الذى دانت له أوروبا بقوة النار والحديد . ومرت الأيام ومات بونابرت ومات بستالوتزى ولكن المؤكد أن العالم قدر ما خلفه بستالوتزى من آراء أكثر من تقديره لما خلفه بونابرت من حروب .

وكان طبيعيا أن تسحب السلطة من الحكومة المركزية وتمنح إلى المقاطعات السويسرية ، وأدى ذلك إلى قطع الإعانة التى كانت ترسلها الحكومة إلى بستالوتزى ، بل انه أخرج من القلعة بناء على طلب المقاطعة ، فهاجر إلى مكان قريب من برن حيث قام معهد زراعى يديره صديق لبستالوتزى . واتفق على أن تكون الناحية الفنية له والإدارية لصديقه ، صاحب المعهد . ولكن الرياح لم تأت بما تشتهى السفن فترك بستالوتزى المعهد وهاجر إلى قلعة فردون Verdun ، وبعد سنة لحق به مساعدوه الذين ضاقوا ذرعا بإدارة صديق بستالوتزى .

فى فردون

بعد هذه الظروف بدأ بستالوتزى العمل فى قلعة فردون التى أصبحت كعبة يحج إليها كل من أراد أن يرتوى من منهل بستالوتزى ، فأرسلت الحكومات بعثاتها من المربين ليجلسوا إلى بستالوتزى يستمعون ويرون طريقته ، ووفد إلى المعهد أطفال من مسافات بعيدة إما ليتتلمذوا على يد بستالوتزى أو جاءوا ومعهم أساتذتهم ليدرسوا بين جدران المعهد .

وانساق الناس مدفوعين بهذا الحماس الغريب للنظام الجديد ، وكانت الموجة عالية عاتية ، ولكن عندما قل الحماس ، أو قل خمد ، زال بريق النظام الجديد وأمسى أمرا عاديا ، ولكن المبادىء التى نادى بها ظلت بارزة متلألئة لايستطيع ضوء آخر أن يضاهيها . هى شمس وغيرها كواكب .

لقد أحبه الأطفال حبا فاق كل حب لأستاذ ، كانوا يسألون عنه إذا تأخر أو غاب ولاينتهى قلقهم إلا إذا لاح لهم ، وهنا تتعلق عيونهم البريئة بهذا الوجه الذى كسى بنقط الجدرى يعلوه شعر غير ممشط وتحته لحية غير منظمة ... كانت عيونهم تتعلق بعينيه اللتين تفتحان لحظة فى هدوء واستسلام ثم تبرقان فى أخرى بوميض سريع كالبرق وأحيانا نصف مفتوحتين كأنما قد ارتبطتا بما يدور تحت جمجمته من أفكار وتأملات ، وكان إذا تحدث سكتت الأنفس وأصاخوا السمع حتى ينساب صوته رقيقا فى يسر لحظة وكالهدير يتفجر أخرى وهو فى كلتا الحالتين مسموع مؤثر تستجيب له النفوس .

لقد أحبه معاونوه فلم يطلبوا لأنفسهم راتبا ، أما هو فقد وضع ما يجمع من المال من الأطفال فى صندوق بحجرته ، ومع كل مدرس مفتاح الحجرة فإذا أراد أحدهم شيئا من المال أخذ .

هذا الرجل الذى لم يأبه بونابرت له عندما كلمه عن التربية وجد من يقدره حق قدره ، وجد شعبا آخر يرى فى التربية الطريق إلى الخلاص ثم إلى المجد والسؤدد ، إنه شعب بروسيا . فبعد أن اجتاحت قوات بونابرت برلين وحطمت جيوش الألمان فى موقعة بينا سنة ١٨٠٦ بدأ الملك يفكر فى وسيلة للخلاص، فنظر إلى الأطفال وقال «هؤلاء هم رجال المستقبل وعليهم عماد الوطن» وبدأ يفكر فى كيفية الاهتمام بهم . أن بروسيا قد فقدت جيشها وأرضها وأصبحت ذليلة كسيرة . وبينما كانت هذه الأفكار تراود عقل الملك كانت الملكة تقرأ كتاب «ليونارد وجرترود» وكتبت فى مذكراتها «إننى أقرأ ليونارد وجرترود ويعمنى السرور عندما أحلم أننى قد نقلت إلى قرية سويسرية ، ولو قدر لى ذلك لركبت عربة أقودها إلى حيث يوجد بستالوتزى : وهنا سأصافحه بحرارة وسأشد على يديه بقوة بعينين قد امتلأتا بالدموع ، دموع تعبر عن امتنان وشكر عظيمين . بأى خير يعمل لهؤلاء البؤساء وبأى ايمان ورغبة جامحة يتجه إليهم وإلى خيرهم . نعم اننى باسم الإنسانية أشكره من صميم قلبى» .

إذن فقد اتجهت بروسيا أخيرا إلى التربية وتأثرت برأى فيلسوفها الجبار فيخته عندما نادى فى كتابه «مقالات إلى الأمة الألمانية» [1] بأن التربية هى الوسيلة الوحيدة لانقاذ ورقى الأمة ، وأن كل إصلاح فى نظم التربية والتعليم يجب أن يؤسس على مبادىء بستالوتزى .

ولذلك فقد أرسلت حكومة بروسيا ١٧ شابا فى بعثة مدتها ثلاث سنوات لتدرس على يد بستالوتزى فتأخذ منه المبادىء والحكمة ولتتأثر قلوبهم بالغاية النبيلة التى سيتبعونها عندما يعودون إلى وطنهم ، ومن بين هؤلاء الفيلسوف الألمانى فردريك هربارت، ثم الرجل الذى لعب دورا جبارا فى التربية وهو فردريك ولهلم فروبل.

---

(1) Addresses to the German Nation

كانت الحياة فى المعهد لاتسير على رتيب ممل بل تتخللها الحفلات والاحتفالات وكانت أسباب النجاح تحمل بين طياتها عوامل الفشل ، فإن العلاقات فى المعهد كانت تقوم على أساس أن الأفراد كلهم أسرة واحدة يخضعون للأب «بستالوتزى» وكان هذا ميسرا فى برجدورف أما هنا فى فردون فقد تغير الحال ، إذ أصبح المعهد عبارة عن عالم صغير ، تنوعت فيه الجنسيات واللغات إلى جانب الكثرة العددية . ومازال الأطفال ينادونه بالأب بستالوتزى ، ولكن ككل أب كان الواجب عليه أن يعرف كل أبنائه ، ولكن ذلك لم يكن متيسرا ، وبذلك انكمش عنصر الحب الذى قام النظام على أساسه .

من ناحية أخرى ... حاول بستالوتزى عمل المستحيلات كما كان دأبه ولكن فى هذه المرة لم تسمح له الظروف بالنجاح ، فإنه كان ينادى بأن قوى الطفل يجب أن تعمل كوحدة لاتنفصم عراها ، ولكن هذه التربية لايمكن أن تبدأ عند أى سن ، ومع ذلك فإن الأطفال من كل الجنسيات وفى أى الأعمار كانوا يقبلون بالمعهد ، ثم ينظر إليهم على أنهم لايعرفون شيئا ، وعليهم أن يبدءوا من جديد .

وساءت أحوال المعهد حتى أن الأساتذة طلبوا من بستالوتزى أن يطلب من الحكومة تعيين بعض المشرفين الإداريين ، وكان من هؤلاء أحد رجال التربية واسمه الأب جيرار Pere Girard . وكان هذا لايرضى بأية وسيلة أن يكون مأمورا أو خاضعا لبستالوتزى ، إذ كانت له أفكاره التربوية التى يعتز بها . وسرعان ما أرسل الأب جيرار تقريرا أبان فيه أن مستوى الطفل العلمى فى المعهد أقل من مستوى طفل فى مثل سنه فى أية مدرسة عادية ... والأكثر من ذلك أن أطفال المعهد لايهتم بتعليمهم اللغة القومية ، حقا إن هؤلاء الأطفال يعرفون الحقائق الحسابية المجردة لكنهم يفشلون فى إجراء أبسط أنواع المسائل الحسابية ... وكان هذا الأب منافقا فى هذا الزعم .

وفى عام ١٨١٠ ترك المعهد أحد الأساتذة واسمه شميد Schmid وقد أعلن بأن المعهد «وصمة فى جبين البشرية» ومنذ ذلك اليوم بدأت الأحوال المالية تسير من

سيىء إلى أسوأ وبدأ الأساتذة يتفرقون وكأنما نعق البوم وسط هذه الأسرة المتحابة . على أن الغريب أن شميد عاد سنة ١٨١٥ ثم سيطر سيطرة تامة على بستالوتزى الشيخ الذى عرف الضعف إلى جسمه سبيلا . وعمل شميد على إبعاد المقربين من بستالوتزى ومنهم كروزى وزوجته اليزابث التى طرقت باب بستالوتزى ذات يوم ، كما أشرت إلى ذلك سابقا . وتزوج حفيد بستالوتزى من أخت شميد فارتبط به بروابط عائلية أى أنه ظل المشرف على المعهد ، وظل إشرافه قائما حتى خرب المعهد تماما فطرد منه .

وفى الوقت الذى بدأ فيه اسم بستالوتزى يفقد مكانته فى نفوس أهل فردون اجتاحت جيوش النمسا أرض سويسرا ١٨١٣ - ١٨١٤ قاصدة غزو فرنسا ، وأصدرت القيادة النمساوية أوامرها باتخاذ قلعة فردون مستشفى خاصة بعد انتشار حمى التيفوس بين الجنود . ولكن بلدية فردون لم تطق صبرا ووجدت فى هذا الاحتلال تحطيما تاما للمعهد فأرسلت مندوبين من لدنها إلى القيادة العليا وصحبها بستالوتزى، وإليه وحده يرجع الفضل فى سحب القيادة العليا لطلبها وبقاء المعهد يؤدى رسالته .

وفى عام ١٨١٥ حدثت لبستالوتزى أكبر حادثة اهتز لهاوتأثر بها تأثرا عميقا ذلك أنه فقد الشخص الذى لم يستطع سوى الموت أن يفرق بينهما ، زوجته التى رثاها قائلا إنها كانت عونه وعضده وانهما استمدا شجاعتهما وقوتهما من الكتاب المقدس .

وكانت السنون التالية خالية من الحوادث المهمة اللهم إلا هذه المدرسة الصغيرة التى افتتحها فى قرية اسمها كلندى Clindy وقد ارتفع عدد الأطفال فيها إلى الثلاثين، وسرعان ما أصبح اسم كلندى علما . وما زال شميد يقنع الرجل العجوز طيب القلب حتى نقل أطفاله إلى القلعة . ولكن أيام القلعة كانت قليلة محدودة فسرعان ما أقفلت أبوابها وانتقل بستالوتزى إلى نيوهيف .

وظل هنالك يحيا حياة هادئة تتناسب مع شيخوخته حتى أسلم روحه إلى بارئها فى ١٧ فبراير ١٨٢٧ بعد أن عاش إحدى وثمانين سنة .

آراؤه فى التربية

صاح بستالوتزى صيحته المدوية قائلا إن نظم التربية فى حاجة ماسة إلى تغيير الهدف من التربية ، فقد كان الهدف هو التعليم ولكنه غيَّره إلى النمو ، فليست التربية فى نظره تعليما بل هى نمو . ويعبر عن ذلك الرأى بنشبيه طريف : فيقول إن ما يلزم عربة المدرسة ليس تغيير الخيول ولكن تغيير الطريق . ويرى أن جعل النمو هدفا للتربية معناه أن يصبح الطفل هو محور الأهتمام ، وفى ظل التربية الصحيحة ينمو النمو الصحيح . وعلى ذلك فآراء بستالوتزى تعنى بالغاية والهدف ، ولعل السبب الذى دفعه إلى هذا الرأى هو حدبه على الإنسانية وحبه للبشرية . فعندما رأى الحال السيىء الذى انحدر إليه الفلاحون وتألم لهم أيقن أن صلاح أحوالهم لن يتأتى إلا عن طريق التربية التى بواسطتها يستطيعون أن يكونوا كما أراد الله أن يكونوا وبها يستطيعون استغلال قدراتهم الفطرية أحسن استغلال ، ويقول : «ترى لماذا اهتممت هذا الاهتمام البالغ بالتربية العقلية والجسمية ؟ أذلك لأننى أعتبر أنه ينبغى على الإنسان استخدام كل القدرات التى وهبها الله إياه . وأن يوجهها لما فيه كماله حتى يستطيع أن يسلك السلوك النبيل» .

ولهذا فهو يصر على أن تمنح لكل الأطفال الفرص المتكافئة للتعليم حتى لايحرموا من التربية المجدية الصحيحة التى تقودهم إلى خيرهم .

وتبدأ الأم عملية التربية ، وهو يرى أن الله قد وهبها من القدرة ما يساعدها فى عملها النبيل وأن تصبح هى العامل الرئيسى فى نمو طفلها ... إن الله وهب طفلك كل القوى التى تتطلبها الحياة ، ولكن هنالك نقطة لم يستقر الرأى عليها بعد وهى كيفية استخدام هذا القلب وهذه الرأس وهاتين اليدين . ولصالح من تستخدم ؟ سؤال تحدد اجابته مستقبل حياة ابنك ... هل ستكون هنيئة رغيدة أم تعسة شاقة ... إنها حياة فلذة كبدك ، إنه ضناك وعزيزك ... إن حب الأم لأبنها هو اللبنة الأولى فى صرح

تربية الطفل ... وعن طريق التربية الصحيحة تزرع فى نفسه محبة الخالق الأعظم ... الله جل جلاله .

ويجب أن تعمل التربية على استغلال القدرات التى زود الله بها الطفل وأن يسمح لها بالتعبير عن نفسها حتى يتاح بذلك النمو الصحيح المتزن للطفل ، وهذا يتطلب أن تكون التربية ليست مجرد دروس غير متصلة ، بل يحتم الأمر أن ترتبط الدروس فى انسجام ووحدة . وعمل المربى أن يعمل جاهدا على ترقية نمو الطفل الخلقى والعقلى والجسمى .

وليس المبدأ الرئيسى الهام للتربية هو التدريس ، ولكنه الحب والعطف ، ويؤكد بحزم وإصرار أن الطفل يحب ويصدق قبل أن يفكر ويعمل ، ويشبه بستالوتزى قوى القلب وهى الحب والايمان بكونها عوامل تكوين حياة الفرد بالجذر بالنسبة للشجرة ، فهل يمكن إن اجتث الجذر أن تبقى الشجرة حية ! ؟ وعلى ذلك فإن الطفل دون حب وإيمان لايمكنه أن ينحو النحو الواجب . إن قلوبنا وعواطفنا تقودنا إلى الأعمال أكثر مما تقودنا إليها أدمغتنا ، وقد أفضل شخصا يحب الخير والفضيلة ولكنه جاهل أكثر مما أفضل أخر يحب الشر والرذيلة وقد ضرب بسهم وافر فى التحصيل العلمى .

بذلك يضع بستالوتزى التربية الخلقية والدينية فى المقدمة ، ولذلك فقد أمسك بمعول النقد يهدم صرح بناء التعليم فى المرحلة الأولى فى عهده فهو يقول «إن هذا التعليم فى كل مظاهره يسيطر الجسم على الروح ، أما العنصر المقدس فقد أهمل شأنه، وفى كل مظاهره تجد الأنانية واضحة جلية بل هى الباعث على مختلف أنواع السلوك ، وتجد فى هذا التعليم دلائل على سيادة العادات الآلية فى الوقت الذى كان يجب أن تنتعش فيه أوجه النشاط التلقائى ...

إن نظام التعليم يجب أن يكون غير ذلك النظام ... «فليست لقمة العيش هى كل شىء . بل إن كل طفل فى حاجة شديدة إلى التربية الدينية ، وكيف يمكن أن

يصلى لربه فى خشوع وبساطة ولكن بايمان وحب ... وإذا لم تلعب التربية الدينية الدور الأول فتأكدوا أن كل أنظمتكم التعليمية ستظل بعيدة عن التأثير فى حياة الأطفال وستظل التربية بذلك شكلية أى أنها بعيدة عن الحياة والواقع» .

نعم إن الطفل يجب أن يصلى أولا ثم يفكر بعد ذلك .

ويجب على الطفل أن يفكر ، ولم يقل بستالوتزى كما نادى جون لوك بأن الطفل يجب أن يتعلم ، والفرق بينهما واضح ، فالأول يحتم التفكير والآخر يصر على التعليم ، وليس لدينا شك فى أن لوك لم يقصد مطلقا بالتعليم تعليم التفكير . ولعل من الضرورى أن أوضح هنا ماأقصده بالتفكير أو ماقصده بستالوتزى فى الواقع ، ويخيل إلى أنه لم يرم إلى ما نطلق عليه اليوم خطوات التفكير التى يتبعها العقل ، ولعله كما أعتقد ، قصد من التفكير «التأمل» . وقد يكون مصدر فكرة بستالوتزى هنا تأثره الواضح بفلسفة جان جاك روسو وخاصة ما عرضه فى تحفته «أميل» . ويؤيد هذا الرأى أن بستالوتزى مع اعتناقه للكثير من مبادىء روسو إلا أنه يخالفه فى أمر أساسى وهو إحجام روسو فى تعليم الطفل قبل سن الثانية عشرة ، ويقول بستالوتزى «إن من الواجب أن يتعلم الأطفال ، ويكون تعلمهم عن طريق تنمية كل قوى العقل» وهنا يرفع صوته عاليا فخورا بأنه اكتشف اكتشافه الأعظم وهو عن كيفية تنمية قوى العقل فى هذه الفترة ، فيرى أن يؤسس التعليم على أساس Anschauung [1] ، وأسمح لنفسى بأن أترجم هذه الكلمة بلفظ «التأمل» .

التأمل هو العمل الطبيعى ، التلقائى للذكاء البشرى ، وعن طريق التأمل يستطيع العقل أن يحصل على الحقيقة دون مجهود كبير ودون تردد ، فالتأمل إدراك مباشر وليد اللحظة . ويسهل التأمل إذا كان الشىء الذى نتأمله محسوسا أما إذا كان

---

(١) تجد هذه الكلمة الألمانية ترجمات عدة فى اللغة الإنجليزية والفرنسية ، وقد تجد لفظ «التأمل» خير ترجمة لها بالعربية

فكرة أو رأيا أو حقيقة أى ليس أمرا محسوسا ، فحينئذ يتقدم إلى العقل وهذا يستوعبه بعد تمحيص ، وعلى ذلك فالتأمل ليس شيئا جديدا على العقل ، بل هو العقل نفسه يتعرف ما حوله وما فيه .

التأمل إذن ميسر لكل طفل ، ولو استطعنا كمربين أن نستغل الطريقة التأملية في عملية التربية والتعليم فإننا بذلك نكون قد هيأنا للطفل فرصة حقيقية للانتفاع بقدراته ، ولعل في استخدامنا الطريقة التأملية تغلبا على كثير من المشاكل التي تجابهنا في التربية . ولعل خير ما نجنيه أن الطفل سيقبل بنفسه إقبالا تلقائيا على العمل لأنه يتأمل ، وقد عرفنا أن التأمل هو العقل نفسه يتعرف ما حوله وما فيه .

وهناك ثلاثة أنواع من التأمل : تأمل حسى وتأمل عقلى وتأمل خلقى . كما أنه توجد تأملات للإحساسات الداخلية، وهذه أربعة : أولا ، الإحساس بالحق ، ثانيا ، الإحساس بالجمال ، وثالثا الإحساس بالخير ، ورابعا الإحساس بالمطلق غير المحدود .

ويؤمن بستالوتزى بأن لكل من الجسم والعقل قدرات يستطيعان عن طريقها معرفة ما هو حق صائب ، وعلى أساس هذه القدرات يبنى بستالوتزى نظامه التعليمى وأسسه التربوية . ويلوح لنا أن بستالوتزى ليس أول من آمن بهذه الفكرة ، فالثابت أن لوك Loke [1] نادى قبل بستالوتزى بحوالى قرن من الزمان بأن المعرفة هى «الإدراك الداخلى للعقل» .

ويقول : إذا كانت المعرفة تتأتى عن طريق الرؤية ، فإن من الجنون أن أستخدم عينى شخص آخر لكى أعرف أنا ، بل الواجب أن استخدم عينى فأرى أنا ما يحاول هو أن يعبر عنه بكلمات كثيرة . ولكن لوك لم يلق بالا إلى القوى العقلية للطفل ، أضف إلى ذلك أنه كان فيلسوفا أكثر منه مربيا يعمل فى سلك التربية والتجريب . وجاء

(١) جون لوك فيلسوف إنجليزى (١٦٣٢ - ١٧٠٤) .

بعده روسو فنادى بأن الطفل يجب أن يظل دون تعليم حتى سن الثانية عشرة ثم يتناوله المربى وسيجد أن الطفل كبيت خال غير مؤثث ويمكنه أن يؤثثه بما شاء من ألوان الأثاث . أما بستالوتزى فيضرب بفكرة روسو عرض الحائط ، وينادى بأن المربى فى أى سن لن يجد عقد الطفل بيتا خاليا دون أثاث ، لأن الطفل يتكلم منذ أن يولد وتعمل حواسه . ويتكلم الطفل لا عن طريق ترديد كلمات وأفكار وإحساسات الآخرين، ولكن عن طريق خبراته الشخصية وإحساساته وما تولده هذه من أفكار ومعارف فى نفسه .

ويرى بستالوتزى أن الجانب العقلى فى مرحلة التعليم الأولى يجب أن يؤسس على التأمل ، والتأمل يجب أن يقوم على ما يحيط بالطفل وما يمس حياته ويرتبط به. ويلوح لنا لأول وهلة أن بستالوتزى لم يلق عناية كافية لناحية «الاهتمام» فى هذه المرحلة . ولكننى أرجح أن التأمل نفسه فيه عنصر الشوق والاهتمام ، فلن يتأمل الطفل شيئا لايجد فيه ما يثير شوقه واهتمامه .

تقوم فلسفة التدريس عند بستالوتزى على مبدأ «تحليل المعرفة» حتى يستطيع الأطفال أن يفهموا ويتعرفوا على ما يحيط بهم ، ويكون ذلك فى نظام وخطوات تؤدى كل خطوة منها إلى الخطوة التالية حتى تتمشى الحقائق تمشيا منطقيا متدرجا وبهذا يتعلم الطفل على مهل كما أنهم يتعلمون بأنفسهم ، ويحصلون على الحقائق بأنفسهم، وبذلك تقوى ملاحظتهم وتدرب تدريبا عمليا صحيحا ، ويستطيعون استنباط النتائج من التجارب . وما على المدرس إلا مد الأطفال بالمواد والفرص المناسبة والظروف المواتية . ويؤيد بستالوتزى فكرة التمهل فى التعليم وخاصة للمبتدئين ويقول «نحن لانضيع الوقت كما يتراءى للبعض ، ولكننا فى الحقيقة نكسبه ..» ويؤكد رأيه هذا بأن الطفل سيثق ثقة تامة بالمواد الدراسية التى يتعلمها دون تسرع ، لأن التمهل من شأنه أن يؤكد هذه الحقائق ويثبتها .

وثمة فكرة على جانب كبير من الأهمية وهى ضرورة أن ينظر الأطفال نظرة جدية إلى التعليم، وهو بذلك يناقض بعض المربين ممن سبقوه ونادوا بأن يعطى التعليم على هيئة «تسلية» أمثال لوك وبازيدو Basedow [1] وينادى بستالوتزى بأن الطفل يجب أن يعوّد منذ البداية النظر جديا إلى التربية وأن الاجتهاد والجد ضروريان للحصول على المعرفة الصحيحة . ولكن مع ذلك يجب أن يعلم أن الجد ليس شرا ويجب أن يشجع عليه . وتستلزم عملية الجد شعور الطفل بحالة ارتياح وسرور يدفعانه إلى العمل ، ولذلك فإن فقدان الارتياح والسرور من شأنه أن يصرف الطفل عن العمل الجدى كالانتباه إلى الشرح . وينصح بستالوتزى المدرس الذى يجد تلاميذه قد انصرفوا عنه ، ينصحه بأن يبدأ البحث عن سبب ذلك ، ويرجح أن يكون المدرس نفسه هو السبب .

وانقل عن لسان فردريك هربارت الألمانى عندما زار بستالوزى فى برجدورف أنه عجب لموقفه الجدى فى الفصل، فلم تكن هنالك أقصوصات لطيفة يتلذذ الأطفال بسماعها ، ولم تكن هنالك فكاهات مليحة ترسم الضحكات والابتسامات على وجوه الصغار ، ولم يكن هنالك سوى الشرح الدسم والإنصات التام من الأطفال ، وقد أنصت هؤلاء لأن بستالوتزى عرف كيف يمزج بين الحقائق العلمية وبين التسلسل المنطقى والشرح الهين ، مما جعل المادة تنساب إلى عقول الأطفال لذيذة شيقة .

هذا ، وقد اهتم بستالوتزى بالغناء والرسم ، وقد شاعت وانتشرت الأغانى الخفيفة التى نظمها مدرس فى فردون اسمه نايجلى Nageli ، ويقول بستالوتزى فيما يختص بالرسم أن الشخص الذى اعتاد أن يرسم من الطبيعة سيجد فيها أشياء تخفى على الكثيرين ، فإن تأمله ومحاولته خلق منظر على الورق يشابه المنظر الذى أمامه

---

(١) بازيدو أحد الذين أدلوا بدلوهم فى حركة الإصلاح التربوى وقد ولد جون برنارد بازيدو فى هامبورج ١٧٢٣ .

يبين له أشياء لايراها عابر السبيل . وبكثرة ملاحظة الكل وأجزائه تتكون عند الطفل عادة حسنة ، فيعتاد التدقيق والبحث العميق .

وسألخص الآن المبادىء التى نادى بها بستالوتزى ، وهذا التلخيص من مورف Morf فى كتابه Contribution to Pestalozzi's Biography .

١- يجب أن يؤسس التعليم على خبرة المتعلم نفسه .

٢- يجب أن ترتبط خبرات وملاحظات المتعلم باللغة .

٣- ليس وقت التعلم هو وقت الحكم وليس هو كذلك وقت النقد .

٤- يجب أن يبدأ التعليم بأبسط العناصر ويتدرج المتعلم بعد ذلك فى تمهل تدرجا منطقيا متسلسلا .

٥- لايجب على المربى أن ينتقل من نقطة إلى أخرى إلا بعد تأكده من أن المتعلم قد فهم النقطة السابقة وثبتت فى ذهنه .

٦- يجب أن يعرف المعلم أن المقصود بالتربية هو النمو لامجرد إلقاء محاضرة أو سرد حقائق .

٧- على المربى أن يقدس فردية الطفل .

٨- ليس هدف التعليم فى المرحلة الأولى هو الحصول على المعرفة أو المهارة بل هو نمو وتقوية قوى العقل .

٩- مع المعرفة يجب أن تأتى القوة ومع المعلومات تأتى المهارة .

١٠- يجب أن تكون العلاقة بين المعلم والمتعلم علاقة حب وعطف ويجب أن يقام النظام المدرسى على أساس هذه العاطفة النبيلة .

١١- يجب أن يخضع التعليم لهدف التربية .

١٢- علاقة الأم بطفلها تعتبر الأساس للتربية الخلقية والدينية .

هـذا ، وهنـالك تلخـيص آخـر لأهـم آراء بسـتالوتزى أنقلها عـن جـوزيف باين Joseph Payne سردها فى آخر محاضرة له عن بستالوتزى ، قال :

١- إن مبادىء التربية وأسسها يجب أن يبحث عنها داخل الطفل وأن تبدأ منه لا أن تفرض عليه من الخارج .

٢- وتشتمل طبيعة الطفل على قدرات جسمية وعقلية وخلقية وهذه يجب أن تنمى لأنها تناضل لذلك .

٣- للتربية ناحيتان : ناحية إيجابية وأخرى سلبية . فالوظيفة السلبية للمربى تلخص فى إزالة العقبات التى تعترض الطفل حتى يكون أمامه مجال للنمو . أما الوظيفة الايجابية فتظهر فى إثارة المتعلم لتدريب قواه فهو يمده بالوسائل والفرص المناسبة ثم هو يرشده إلى الصواب .

٤- يبدأ النمو الذاتى عندما يتأثر العقل بالأشياء الخارجية . وهو يقصد بها الاحساسات ، وعندما يعيها العقل تتحول إلى مدركات حسية ، وتسجل فى العقل على أنها إدراك لأفكار وهذه تكون المعرفة الأولية التى تصبح أساسا لكل معرفة .

٥- تعتبر التلقائية والنشاط الذاتى الظروف الضرورية التى فى ظلها يعلم العقل ، ويحصل على القوة والاستقلال .

٦- تعتمد القدرات العلمية على العادات التى تكونت من تكرار تدريب قوى المتعلم أكثر من اعتمادها على مجرد المعرفة البحتة . فيجب أن ترتبط المعرفة بالعمل . ولعل غرض التربية الرئيسى هو تنمية قوى المتعلم .

٧- يجب أن تؤسس كل تربية (وحتى تعليم) الطفل على تأمله الشخصى وعلى خبرته الذاتية ، وهذا هو الأساس الصحيح لكل معلوماته . فالحقيقة تسبق الرمز ، والشىء يسبق الكلمة وليس العكس .

٨- يستطيع الطفل بعد أن رأى وتأمل وبعد أن أصبح هذا العمل جزءا من خبرته ، يستطيع بعد ذلك أن يصفه بكلامه وأسلوبه . وعلى قدر وصفه من حيث شموله أو نقصه ، عمقه أو سطحيته ، نستطيع أن نحكم على دقة تأمله وبالتالى نعرف مدى معلوماته ومعرفته .

٩- تتطلب الخبرة الشخصية أن يتقدم عقل المتعلم من القريب ومن الواقعى - اللذين له بهما احتكاك واللذين يستطيع أن يتعامل معهما - يتدرج من القريب إلى البعيد ومن الواقعى المحسوس إلى المعقول ومن المادى إلى المعنوى ، ومن الخاص إلى العام ومن المعلوم إلى المجهول . هذه هى الطريقة التى يجب اتباعها فى مدارس المرحلة الأولى للتعليم ، وهى تناقض ما ذهب إليه السلف (يقصد جوزيف باين بالسلف بعض الذى تعرضوا للنظم التربوية قبل بستالوتزى) فهؤلاء كانوا يبدءون من المعقول إلى المحسوس ومن المعنوى إلى المادى ومن المجهول إلى المعلوم ومن العام إلى الخاص . وهذه الطريقة التى اتبعها السلف قد تجدى مع كبار التلاميذ ولا يمكن مطلقا أن تنجح مع الأطفال المبتدئين .